
10
قصص الصحابة
سيد الشهداء
سلوى العنانى
دار اللطائف

سيد الشهداء

(حمزة بن عبد المطلب)

دعاه إلهُ الحق ذو العرش دعوةً
إلى جنةٍ يحيا بـــها وســـرورِ
فذلك ما كنا نُرجى ونرتجـــي
لحمزة يوم الحشر خـــيرَ مصيرِ

صفية بنت عبد المطلب (أخت حمزة)

لو قَلَّبنا صفحاتِ التاريخِ كلها بحثًا عن صاحبِ اسمٍ يقاربُ صاحبَ هذا الاسمِ صلةً بالنبيِّ محمدٍ ـ عليه السلامُ ـ لما وجدنا ..

هذا هو حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ بنِ هاشمٍ ..

عمُّ النبيِّ الكريمِ .. وهذه هي الصلةُ من جهةِ الأبِ ..

فماذا عن الصلة من ناحية الأم ؟

إنها هي الأخرى وطيدةٌ ولصيقةٌ ..

(فآمنةُ بنتُ وهبٍ) أمُّ النبيِّ الكريمِ هي ابنةُ عمٍّ (هالةَ بنتِ أُهَيْبٍ) أمّ حمزةَ .. إذًا فهما في حُكمِ أولاد (الخالة) ....

وهما بعد هذا وقبله أخوان في الرَّضاعة .. حيثُ أرضعتهما (ثويبةُ) جاريةُ (أبي لهبِ بنِ عبدِ المطلبِ) عمّ النبيِّ وشقيقِ حمزةَ .. هـا هـمـا .. (محمدٌ) و(حمزةُ) متقاربـان في العمـرِ ومتحدان في الرضاعةِ ولصيقان في النسبِ ..

لكن طفولةَ الرجلين لم تكنْ متشابهةً ..

فهذا (محمدٌ اليتيم) .. يحبُّ العزلةَ والتفردَ بنفسه .. يتأملُ الكونَ ويطـرحُ علـى نَفْسِـه أسـئلةً عـن صـانعِ هـذا كُلِّـه وخالقِه .. يرعى الأغنامَ ويبتعدُ عن كلِّ أماكنِ اللهوِ ..

أما (حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ) فكانَ مختلفًا .. فقد نَعِمَ بحنـانِ أبيه حتى بلغَ الثامنةَ .. وبعد موتِ أبيه نهلَ من حُضْنِ أمه (هالة) من الرعاية والعطفِ ما عوَّضه عن فقدِ أبيه ..

وكان (حمزةُ) فتًى قويَ البنية .. يناطحُ أترابَـه ويسـارعُ في سباقِهم ويَبُزُّهـم في ركوبِ الخيلِ وفنونِ القتالِ وهو لم يـزلْ صغيرًا .. أما الصيدُ فقد كانَ هوايَتَه الأولى .. يخـرجُ للفـلاةِ كلَّ صباحٍ حاملاً سهامَه فيباري أقرانَـه ويحقـقُ تفوقًـا علـى غزلانِ الصحراءِ وطيورِها .. في الخِفَّةِ والسُّرعةِ .. وكثيرا مـا عادَ إلى بيتِه مع غروبِ الشَّمسِ حاملا صيدَه .

لم تكنْ حياةُ حمزةَ هي الصيد والمغـامرة والتدريـب على فنونِ القتالِ فقط .. بل كانتْ مـع هـذا .. مشـاركةَ طقـوسِ قريشٍ ودورًا في قيادةِ شئونِ الحياةِ .. لم لا .. وهو ابن أشرف بيوتها وأعلاها نسبا ؟!

أصبح (محمدٌ) هو حديثُ أهلِ مكةَ كلها ..

الفقراءُ يتكلمون عن جنةِ العدلِ والمساواةِ والحـقِّ وعـن دين يقول : ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْـدَ اللهِ أَتْقَـاكُمْ إِنَّ اللهَ عَلِيـمٌ خَبِيرٌ﴾ .

والأغنياءُ يعارضونَ هذا الذي يُسَفِّهُ أفكـارَهم ويدعوهـم لعبادةِ إلهٍ واحدٍ .. ويريـدُ أن يحطِّـمَ أصنامَـهم ويـأمرَهم ألا يسجدوا إلا لله الواحدِ القهارِ ..

الفقراءُ يتسللون إلى دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ .. يحفظونَ عـن النـبي مـا أُوحـي إليـه مـن القـرآنِ ويصلـون خلفَـه ويبتهلون .

والأغنياءُ يرفعون أصواتهم عند الكعبة معلنين رفضـهم واعتراضهم بل ويحرضون الآخرين لمحاربة (يتيم بني هاشم) ومناهضةِ أفكارِه وأقوالِه .

فماذا عن أشرافِ بني هاشمٍ ؟ ماذا عن أهل (محمدٍ) وعشيرته؟ ماذا عن أعمامِه وأسرتِه؟

كان هناك من أهلِ (محمدٍ) من آمَن به .. فقد آمنَ به كلُّ أهلِ بيتِه : زوجته (خديجة) ومولاه (زيدٌ) وابنُ عمِّه (عليٍّ) .

وكان هناك من أيَّده ومنعَ عنه الأذى مثل عمِّه (أبو طالبٍ).. فماذا عن (حمزةَ) ؟

كان (حمزةُ) هو أقربُ الناسِ إلى (محمدٍ) وأكثرهم معرفةً بصدقِه وأمانته.. وكان يعرفُ أن حديثَه كُلَّه صدقٌ وحقٌّ .. لكنه كان يحلمُ بالسيادةِ والزعامةِ بين سادةِ قريشٍ وزعمائها ..

وكان (محمدٌ) يرقب عمَّه ويعرفُ نفسَه الصافيةَ ورجاحةَ عقلِه ويعرفُ قوتَه وفتوتَه ويتمناه إلى جوارِه يؤيِّده ويؤازره .. وينتظرُ لحظةً ينيرُ فيها الله بصيرتَه ..

كان (حمزةُ) عائدًا من رحلةِ صيدٍ عندما سمع من يناديه هامسًا، فتلفت حولَه ليجدَ واحدةً من خَدَمِ (عبدِ الله بنِ جدعان) تتجه إليه بالحديث :

(يا أبا عمارةَ .. لو رأيتَ ما لَقِي ابنُ أخيك (محمدٌ) آنفا من أبي الحَكَمِ بن هِشَام) .

فسألها (حمزة) في لهفة : ماذا حدث ؟

- وجده جالسا فسبَّه وآذاه ، وبلغَ منه ما يَكْره ، فانصرفَ عنه (محمدٌ) ولم يكلمه .

واشتعلت الثورةُ في رأسِ (حمزَةَ) .. وهاجَ وغَضِبَ .. فكيف يُلْحِقُ هذا الأحمقُ (أبو جهلٍ) الأذى بأخي وابن أخي وابن خالتي ثم لا أمنع عنه ما يؤذيه؟! .. كيف يحدثُ هذا وأنا أحيا على هذه الأرضِ ..

وأسرع (حمزةُ) الخطوةَ فى اتجاه الكعبةِ قاصدًا (أبي جهلٍ) حتى وجدَه جالسًا وَسَطَ مجموعةٍ من التجارِ والأشرافِ ..

وكأنه صقرٌ يعرفُ فريستَه .. رفعَ (حمزةُ) قوسَه فضربَ به رأسَ (أبي جهل) فَشَجَّه .. وسالَ الدمُ على وجهِ الرجلِ .. ونظر متعجبا مثلما نظر كلُّ من حولَه .. وقد بدا في العيون سؤالٌ واحدٌ .. لماذا تضرب (يا حمزةُ) هذا السيدَ فتُسيلُ منه الدم ؟!

وقبل أن يَفُوقَ الجلوسُ من صدمتهم .. جاء صوتُ (حمزةَ)

وكأنه خارجٌ من فوهةِ بركان ..

أتشتمُ (محمدًا) وأنا على دينه أقولُ ما يقول .. ثم نظر (حمزةُ) إلى (أبي جهلٍ) في تحدٍّ قائلا : ردها عليَّ إن استطعتَ .

وهَمَّ بعضُهم قائما يردُّ على (حمزةَ) ما صَنَعَ (بأبي جهلٍ) .. لكن الأخيرَ رَفَعَ يدَه إليهم يمنعهم قائلاً : (دعوه .. فقد سببت ابن أخيه سبًّا قبيحًا) ..

ووسط ذهولِ الجميعِ أعادَ (حمزةُ) قوسه إلى مكانها ومضى إلى بيته ..

عاد (حمزة) إلى بيته وقد ازدحمت رأسُه بالأفكارِ ..

عاد يتساءلُ عما حَدَثَ .. وكَيْفَ حَدَثَ .. ولماذا حَدَثَ ..

لقد أعلنَ على مَسْمَعٍ من مجموعةٍ كبيرةٍ من زعماءِ قريشٍ ووجهائها أنه قد أَسْلَمَ .. أنه يتبعُ دينَ ابنِ أخيه (محمدٍ) .. وهذا أمرٌ لم يحدثْ .. فهو لم يسمعْ إلى حديثِ ابن أخيه ولم يسألْه عنه رغم أنه موقنٌ من صدقِه فماذا يقول (محمد) .. إلى أي شيءٍ يدعو .. لا بد أن يعرفَ .. لا بد أن يسمعَ وأن يقتنعَ..

لقد أعلنَ (حمزةُ) إسلامَه في لحظةِ انفعالٍ .. وهذا أمـرٌ لا يستقيم وعقلِ الرجلِ وذكائه ورجاحته .. أيغيِّرُ دينَه في لحظةِ غضبٍ .. وتقلبَ (حمزةُ) في فراشِـه .. فكيـفَ يـزورُه النـومُ بعدما حدثَ ، ومع خيوطِ الصباحِ الأولى ذهـبَ (حمـزةُ) إلى الكعبةِ فاتجه إليها بوجهه وقلبِه وراحَ يناشدُ عقلَه وقلبَـه أن يدلَّه على الصوابِ..

وبعون الله .. أدرك الصوابَ ..

ويحكي (حمزةُ) عن هذه الأيام العصيبةِ من حياته فيقول :

(أدركني الندمُ على فراق دين آبائي وقومـي ، وبـتُّ مـن الشكِّ في أمرٍ عظيمٍ لا أكتحلُ بنـومٍ .. ثـم أتيـت الكعبـةَ وتضرعتُ إلى اللهِ أنْ يشرحَ صـدري للحـقِّ ويُذْهِـبَ عـني الرَّيبَ .. فاستجابَ الله لي وملأ قلبي يقينـا .. وغـدوتُ إلى رسولِ الله فأخبرتُه بما كانَ من أمري فدعا الله أن يثبت قلـبي على دينه ..)

وهكذا أعزَّ الله دينَه بهذا الفتى الهاشمي وكـانَ انضمامُـه إلى كتيبةِ الإيمانِ تقويةً لموقفِ المستضعفين من أتباعه ..

وواظَبَ (حمزةُ) على حضورِ مجالسِ النبيِّ وسمـاعِ دروسِـه

حتى أصبحتْ تعاليمُ الإسلامِ تجري في عروقِه مجرى الدمِ وفي صدرِه مجرى النَّفَسِ ..

ويكفينا كي نعرف أثر انضمام (حمزةَ) إلى كتيبةِ المسلمين أن نَذْكُرَ هذا اليومَ الذي دَقَّتْ فيه قبضةُ (عمرَ بن الخطابِ) القويةُ بابَ (دارِ الأرقمِ بنِ أبي الأرقمِ) وارتعدَ البعضُ خوفًا .. يومها تقدمَ (حمزةُ) يفتحُ البابَ وهو يقول لمن معه :

(لا تَرَاعُوا .. إن كان عمرُ قد جاء يريدُ منا خَيْرًا بَذَلْنَاه له ، وإن كان يريدُ بنا شرًّا قتلناه بسيفه) .

فمن غير (حمزةَ) كانَ يستطيعُ أن يقولَ مثل هذا .. ومن غيره كان يمكن أن يقفَ مثل هذا الموقف ..

تزوج (حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ) من (سلمى بنت عُمَيْس) وهي أختُ شقيقةُ (لأسماءَ بنتِ عُمَيْس) التي تزوجت من (جعفرِ بنِ أبي طالبٍ) ابنِ عمِّ النبيِّ - عليه السلامُ - وهاجرتْ معه إلى الحبشةِ ..

وإلى المدينةِ المنورةِ هاجرَ (حمزةُ) ليكونَ مع ابن عمِّه وأخيه ورسولِه ونبيِّ دينه .. هاجر (حمزةُ) مع صفوةِ الصحابةِ

وقد تركَ زوجتَه (سلمى) ووحيدته (أمامـة) بمكـة .. وآخـى النبيُّ ـ عليه السلامُ ـ بينه وبين (حِبِّه) (زيدِ بنِ حارثةَ) .

لم تكن هجـرةُ الرسـولِ وصَحْبِـهِ إلى يـثربَ هـي بدايـةُ الهدوءِ والاستقرارِ للمسلمين .. بل كـانت بدايـةَ النضـالِ السياسيِّ والعسكريِّ لتوطيدِ أركانِ الدولةِ الجديدةِ ..

وبدأت السَّرايا والحمـلاتُ تخـرجُ حاملـةً لـواءَ الإسـلامِ ويحملُ (حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ) أوَّلَ هذه الألويـةِ .. ويكـونُ أولَ من حَمَلَ لواءً في الإسلامِ ..

ويكون (لحمزةَ) الضربةُ الأولى في موقعـةِ (بـدرٍ) عندمـا صرعَ (الأسودَ بنَ عبدِ الأسدِ المخزومي) .

وفي أول مبارزةٍ بين المسلمين وفرسانِ قريش .. بَـرَزَ حمـزةُ ابنُ عبدِ المطلبِ وعليُّ بنُ أبي طالبٍ وعبيدةُ بنُ الحارثِ .. وتفوقَ سيفُ الإسلامِ في يَدِ أبناءِ الإسلامِ .

وكانَ (حمزةُ) واحدًا من أبرزِ فرسانِ المعركةِ .. أطاحَ سيفُه برقابٍ غَيْرِ قليلةٍ لزعماءِ الشركِ وقادةِ الضـلالِ .. وإذا كـانَ المسلمون قد اجتمعوا ليكتبوا قصيـدةَ نَصْرِهـم في (بَـدْرٍ) دفاعا عن الدينِ الحق .. فقد كان لحمزةَ شرفُ تَسْطيرِ أهـمِّ

أبياتِ هذه القصيدةِ وإنشادِ قوافيها ..

وتمتلئُ القلوبُ المشْركةُ غِلاً فوقَ غِلّها .. وهم يذكرون (حمزةَ) كلما تذكروا مصرعَ رجلٍ منهم أو مقتلَ فارسٍ .. وما أكثر من صُرِعَ أو قُتِلَ ..

وجمعت قريشُ فرسانَها واستمالتْ من استطاعت من القبائلِ وحملتْ ما لم تحملْ من قبلُ مِن السلاحِ والعتادِ كما حَمَلَتْ في قلوبها ما لم تعرفْ من قبلُ من حقدٍ وغلٍّ ورغبةٍ في الانتقامِ ..

عامٌ كان قد مَرَّ على موقعةِ (بدر) .. قضاه المشركون في الاستعدادِ للانتقامِ حتى امتلأتْ القلوبُ بالرغبةِ في القضاءِ على هذه الدعوةِ الجديدةِ التي قَتَلَ اتباعُها قادتَهم وفرسانَهم حتى أصبحتْ قريشُ وفي كل بيتٍ من بيوتها مأتمٌ .. ودعوةٌ للثأر ..

وكان (حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ) هو أولُ الأسماءِ ـ بعد رسولِ الله ـ التي اتجهتْ إليها دعوةُ الانتقامِ حتى أصبح وحدَه (جيشًا) يُرادُ هزيمتُه وقهرُه ..

وفِي (أحدٍ) التقى الجمعان .. قاتل المسلمون قتال العقيدة

دفاعًا عن دينِهم وعَنْ نبيهم .. وقاتلَ المشركون ثأرًا لعارٍ لَحِقَ بهم وإطفاءً لنارِ الانتقام في صدورِهم ..

وكان النصرُ لجندِ الله .. وبدأت فلولُ الكفارِ في الانسحاب .. وخالفَ الرماةُ المسلمون أوامرَ نبيهم وقائدِهم وراحوا يجمعون الغنائمَ .. وانتهزها المشركون فرصةً وهاجموا المسلمين من الخلفِ .. واختل ميزانُ المعركةِ ..

وَسَطَ هذا الصراعِ كانَ (حمزةُ بنُ عبدِ المطلب) هو الفارسُ الصَوَّالُ الجوَّالُ يحصدُ سيفُه رقابَ الأعداءِ ولا تخطئ ضربتُه أبدًا.. إلا أن عبدًا حبشيًّا كان يتربصُ به .. جاء هذا العبدُ إلى أرضِ المعركةِ حاملاً رمحَه الذي يجيدُ استعمالَه وليس له إلا هدفٌ واحدٌ (حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ) .. فقد وعده سيدُه (جُبَيْرُ بن مُطْعَمٍ) أن يعتقَه إذا قَتَلَ (حمزةَ) كما وعدته (هِنْدُ بنتُ عُتبةَ) زوجةُ (أبي سفيان) أن تهديه قلائدها وأقراطَها الثمينةَ إذا قَتَلَ (حمزةَ) .

وراحَ العبدُ الحبشيُّ (وَحْشِيٌّ) يبحثُ عن هدفه وسط المعركةِ .. وراحَ يتخفَّى ويدقِّقُ البحثَ حتى أبصرَ (حمزةَ)

فقذفه بحربته التي لم تخطئ فأرداه شهيدًا ..

سقط (سيدُ الفرسان) (أسدُ اللهِ) شهيدًا على أرضِ معركةِ (أُحُدٍ) بعد أن أبلَى بلاءً ليس بعده بلاءٌ ..

إلا أن موتَ حمزةَ وحدَه لم يشفِ غَليلَ الموتورين ولا الحاقدين فَمَثَّلُوا بجثته .. بَقَرُوا بطنَه وانتزعوا كبدَه .. وقطعوا أذنَيه وأنفَه وبعضَ أجزاءٍ من جسمه .. يا لها من فظاعةٍ ..

إنها أمورٌ لم تكنْ تعرفها العربُ .. أمورٌ تتنافى مع أبسطِ مشاعرِ الإنسانيةِ .. وكيفَ يعرفُ هؤلاءُ الآثمون من مشركي قريشٍ مبادئ الإنسانيةِ أو شعورَ البشرِ ؟!

وانتهت المعركةُ وعادَ المشركون إلى مكةَ .

ونزلَ المسلمون أرض المعركةِ يفتشون عن شهدائهم .. كلما رأوا واحدًا تَرَحَّمُوا عليه وتذكَّروا فضلَه على أهله ودينه ..

إلى أن رأى رسولُ الله عَمَّه (حمزةَ) ..

كانت لحظةً قاسيةً على نَفْسِ النبيِّ أن يرى أحبَّ الناسِ إلى قلبه وقد سَقَطَ شهيدًا ثم مَثَّلَ أعداؤه بجثته ..

وخرجتْ الكلماتُ من بين شفتي النبيِّ ممزوجةً بدَمْعِ الأسى وقال: (لن أُصَابَ بمثلك أبدًا .. وما وقفت موقفا قَطُّ أغيظَ مِن موقفي هذا).

وصَمَتَ النبيُّ برهةً وكأنه يستجمعُ شتاتَ نفسِه ثم قال:

(لئن أظهرني الله على قريشٍ في موطنٍ من المواطنِ، لأُمَثِّلَنَّ بثلاثين رجلا منهم).

هكذا كان حزنُ النبيِّ على عمِّه (أسَدِ الإسلامِ) عظيمًا حتى قالَ إنه سينتقمُ له من أعدائه ويصنع مثلَ ما صنعوا مع ثلاثينَ من رجالهم.

لكن الله أرادَ أن يُعَلِّمَ نبيه ويعلم معه المسلمين درسًا عظيمًا في العفوِ والصبرِ .. فنزل الوحيُ الكريم ..

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللهِ وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ [النحل: 125 ـ 128]

فقال رسول الله عليه السلام : (بل نصبر يا رب) .

وصلى النبيُّ وأصحابُه على جثمانِ حمزةَ أولا .. ثم جيء بالشهداءِ واحدًا بعد الآخر .. والنبيُّ وصحابتُه يصلُّون على كلٍّ منهم ومعهم (حمزةُ) فكانت صلاتُه يومها على عمِّه سبعين صلاةً بعددِ غيرِه من الشهداءِ ..

وقبل أن يوارى جثمانُ (حمزةَ) رضوانُ الله عليه رفعَ النبيُّ وجهَه للسماءِ وقال : (رحمة الله عليك فإنك كنت - ما علمتُ - وَصُولا للرحم فعولاً للخيرات) .

صدقت يا سيدى يا رسول الله ..

ورضوان الله عليك يا أسدَ الله .. يا حمزةُ بنُ عبدِ المطلبِ.